محاضرات مقدمة لطلبة السنة الثانية ليسانس علم الاجتماع في مقياس

"النظريات السوسيولوجية الحديثة"

المحاضرة الأولى: الجذور و المصادر الفكرية لعلم الاجتماع

1- ماهية علم الاجتماع

2- الخيال في علم الاجتماع

3- جذور علم الاجتماع

4- المصادر الفكرية لعلم الاجتماع

الدرس الأوّل: ماهية علم الاجتماع

منذ قديم الزمان كان الفضول يتملّكنا نحن البشر لمعرفة مصادر سلوكنا و بواعثه.غير أنّ مساعينا لفهم أنفسنا خلال آلاف السنين كانت تعتمد على مناهج التفكير التي تحدّرت إلينا جيلاً بعد جيل. و كثيرًا ما جرى التعبير عن هذه الآراء بمقولات دينية أو باللجوء إلى الأساطير الشائعة،أو الخرافات أو المعتقدات التقليدية. أمّا الدراسة الموضوعية المنهجية للسلوك الإنساني و للمجتمع،فهي نسبيًّا من التطوّرات التي بدأت في أواخر القرن الثامن عشر. و كان من أبرز هذه التطوّرات استخدام العلم لفهم العالم، و كذلك بروز النزعة للمقاربة العلمية ممّا أدّى إلى تغيير جذري في النظرة الكليّة و المفاهيم لدى البشر،و بدأ التفكير العقلاني و النقدي لاكتساب المعرفة يحل محل التفسيرات التقليدية القائمة على أسس دينية في شتّى المجالات.

و مثلما كان الحال في الفزياء، و الكمياء، و علم الأحياء، و ميادين البحث الأخرى، برز علم الاجتماع باعتباره جزءًا من هذه المسيرة الثقافية المهمّة، و قد مهّدت لظهور علم الاجتماع في بداياته الأولى سلسلة من التغيّرات الكاسحة التي استحدثتها الثورتان العظيمتان في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر في أوروبا. و أدّت هذه التحوّلات الكبرى إلى تغيير لا رجوع فيه في أساليب الحياة التي اتّسم بها الوجود الإنساني منذ آلاف السنين.إنّ الثورة الفرنسية عام 1789م جسّدت انتصار الأفكار و القيم العلمانية مثل الحريّة و المساواة على النظام الاجتماعي القديم.و انطلقت منها قوّة ديناميكية جبّارة سرعان ما اكتسحت العالم و مهّدت لقيام العالم الحديث . أمّا الثورة الكبرى الثانية،فقد بدأت في أواخر القرن الثامن عشر في بريطانيا قبل بدئها في مناطق أخرى في أوروبا و أمريكا الشمالية و غيرها، تلك هي الثورة الصناعية التي اشتملت على مجموعة واسعة من التحوّلات الاجتماعية و الاقتصادية التي صاحبتها ابتكارات تقنيّة جديدة مثل استخدام الطاقة البخارية و المعدات الآلية، و أدّى توسّع الصناعة إلى هجرة أعداد هائلة من الفلاحين من أراضيهم إلى مواقع المصانع و الأنشطةالصناعية ممّا تسبّب في توسّع المناطق الحضرية، و استحداث أشكال جديدة من العلاقات الاجتماعية. وقد أسفر ذلك كله عن تغيّر مثير في ملامح العالَم الاجتماعي بما فيها العادات الشخصية،و أصبح أكثر ما يؤكل أو يشرب اليوم مثل القهوة من نتائج الوسائل الصناعية.

إنّ التهدّم الذي أصاب أساليب الحياة التقليدية قد استلزم من المفكّرين تنمية صيغ جديدة لفهم العالمين الصناعي و الطبيعي على حدّ سواء، و دخل روّاد علم الاجتماع الأوائل معمعة الأحداث التي اكتنفت هاتين الثورتين، و حاولوا استيعاب نشأتها، و نتائجها المحتملة.و من الأسئلة التي سعى مفكّروا القرن التاسع عشر إلى الإجابة عنها:ما هي الطبيعة الإنسانية؟ كيف تأتّى للمجتمع أن يبنى على هذا النحو؟ كيف و لماذا تتغيّر المجتمعات؟ و هذه الأسئلة هي نفسها التي يحاول الإجابة عنها علماء الاجتماع حتى أيّامنا هذه.

تعريف علم الاجتماع

لم يعط **أوجست كونتAuguste COMTE** (1789-1857)تعريفا محدّداً لعلم الاجتماع ، لأنّه يرى بأنّه يدرس كل الظواهر الاجتماعية،فالظواهر الإنسانية بما في ذلك ظواهر علم النفس هي ظواهر اجتماعية، و لذلك فالإنسانية في نظره هي موضوع العلم، و هي الحقيقة التي يرى أنّها جديرة بالدراسة و البحث.

أمّا **هربرت سبنسرHerbert SPENCER** (1820-1902) فكان يرى أنّ علم الاجتماع يصف و يفسّر نشأة و تطوّر النظم الاجتماعية كالأسرة،و الضبط الاجتماعي،و العلاقات بين النظم، و أنّه على علم الاجتماع أن يقارن بين المجتمعات المختلفة،و أن يتناول ظواهر البناء و الوظيفة.

بالنسبة **لإيميل دركهايمEmile DURKHEIM** (1858-1917) الموضوع الأساسي لعلم الاجتماع هو الظواهر الاجتماعية، و من ثمّة اجتهد في تحديد الأوصاف التي تميّز الظواهر الاجتماعية عن غيرها من الظواهر الطبيعية، و ذهب في كتابه "قواعد المنهج السوسيولوجي"إلى أنّ علم الاجتماع شأنه شأن الكثير من العلوم الاجتماعية له من الفروع بقدر التنوّعات الموجودة في الظواهر الاجتماعية.

و يعرّف **ماكس فيبر Maximilien WEBER** (1864-1920) علم الاجتماع بأنّه العلم الذي يحاول الوصول إلى فهم تفسيري للفعل الاجتماعيL'action sociale من أجل التوصّل إلى تفسير علمي لمجراه و لنتائجه.

أمّا **فيلفريدو باريتو Vilfredo PARETO**(1848-1923) فيعرّف علم الاجتماع بأنّه العلم الذي يدرس الظواهر الاجتماعية في تفاعلها بعضها ببعض، كما يدرس الوظائف التي تؤدّيها و الارتباط بينها.في حين أنّ **تالكوت بارسونزTalcot PARSONS** ذهب إلى أنّ علم الاجتماع يدرس الأنساق الاجتماعية.

أمّا مجالات علم الاجتماع من خلال التعريفات السابقة فتتمثّل في :

- دراسة السلوك الإنساني
- دراسة التفاعل الاجتماعي
- دراسة النظام الاجتماعي
- دراسة البناء الاجتماعي
- دراسة الظواهر الاجتماعية

الدرس الثاني : الخيال في علم الاجتماع (المخيّلة السوسيولوجية)

إنّ تطوير التفكير بصورة سوسيولوجية،أو بعبارة أخرى،اتخاذ نظرة أوسع و أكثر شمولاً، يعني من جملة أمور أخرى شحذ المخيّلة .إنّ دراسة علم الاجتماع ليست مجرّد عمليّة روتينية لاكتساب المعرفة.إذ يفترض في عالم الاجتماع أن يكون قادراً على التحرّر من الظروف الشخصية المباشرة و يضع الأمور في سياق أوسع. و العمل السوسيولوجي، على ما يرى الأمريكي شارل ورايت-ميلز Charles WRIGHT-MILLS في عبارته المشهورة، يعتمد على إعمال "المخيّلة السوسيولوجية" أو قل الخيال السوسيولوجي.

إنّ الخيال السوسيولوجي يتطلّب منّا في المقام الأوّل أن ننأى بأنفسنا عن المجريات الروتينية ليتسنّى لنا أن نلقي عليها نظرة جديدة.أنظر على سبيل المثال إلى تناولنا فنجاناً من القهوة. ما الذي يمكننا قوله، من ناحية علم الاجتماع، عن هذا التصرّف الذي لا يبدو في ظاهره مثيراً للاهتمام؟يمكننا أن نقول الكثير في واقع الأمر.

يمكننا ان نشير أوّل الأمر إلى أن القهوة ليست مجرّد شراب منعش أو منبّه،بل إنّ لها قيمة رمزية باعتبارها جزءًا من أنشطتنا الاجتماعية اليومية، و الطقوس التي تصاحب احتساء القهوة أهم من استهلاكنا لها.إنّ فنجان القهوة أو الشاي لكثير من الناس في الشرق و الغرب هو علامة فارقة في روتين السلوك الشخصي.إنّه خطوة رئيسية أولى لبدء نشاط ذلك اليوم، و قد يتلوه تناول ذلك الشراب في وقت لاحق في ذلك اليوم مع آخرين،ممّا يحوّله إلى واحد من الطقوس الاجتماعية. و عندما يلتقي اثنان لتناول القهوة سويّاً، فإنّهما ربّما يكونان مهتمّين باللقاء و الحديث أكثر من اهتمامهما بشرب القهوة.و تناول الشراب و الطعام يمثِّل في جميع المناسبات فرصة للتفاعل الاجتماعي و ممارسة الطقوس. و تمثّل هذه اللقاءات مجالاً خصبا للدراسة الاجتماعية.

و القهوة من ناحية أخرى،هي من المخدّرات، فهي تحتوي على مادة الكافيين التي تحفّز الدماغ. و يحتسي الكثيرون القهوة سعيًا وراء هذه الجرعة الإضافية من التنبّه،كما يعتقد كثيرون أيضاً أن وطأة الساعات و الأيام الطويلة التي يقضونها في المكاتب أو الدراسة قد تغدو أخف على نفوسهم برشفة قهوة خلال فترات استراحة يأخذونها خلال اليوم.و تعاطي القهوة يؤدي إلى التعوّد عليها،غير أنّ أكثر الناس لا يعتبرون من يتعطاون القهوة من مدمني المخدّرات.و القهوة،مثلها مثل الكحول في بعض المجتمعات قد يكون تعاطيها مقبولاً من الناحية الاجتماعية، غير أنّ تعاطي الماريخوانا على سبيل المثال قد لا يكون كذلك.غير أنّ بعض المجتمعات تتساهل في استهلاك الماريخوانا(مثلما أثبتته بعض الدراسات حول بعض مجتمعات أمريكا الوسطى) أو حتى الكوكايين غير أنّها تنظر شرزاً إلى تعاطي القهوة و الكحول كليهما.و من اهتمامات علماء الاجتماع أن يعرفوا الأسباب التي أدّت إلى هذه المفارقات.

و من جهة ثالثة، فإنّ الشخص الذي يتعاطى القهوة يدخل في مجموعة معقّدة من العلاقات الاجتماعية و الاقتصادية التي تمتد إلى أنحاء أخرى من العالم.فالقهوة هي أحد المنتجات التي تربط الناس في أغنى البلدان و أفقرها في مختلف أرجاء المعمورة: فهي تستهلك بكميّات هائلة في الأقطار الغنيّة(كما تثبته الإحصاءات الاقتصادية حول المنتوج)، و لكنّها تزرع و تنتج أساساً في البلدان الفقيرة. و تحتل القهوة المرتبة الثانية بعد النفط باعتبارها السلعة الأكثر أهمّية في التجارة العالمية؛ إذ إنّها تزوّد العديد من الدول بالمصدر الأكبر للتبادل الخارجي. كما أنّ إنتاج القهوة و نقلها و توزيعها يتطلّب التعامل و التبادل بين أناسٍ يبعدون آلاف الأميال عمّن يشربونها.و تقع هذه المبادلات التجارية العالمية في صلب اهتمامات علم الاجتماع، إذ إنّ جوانب عديدة من حياتنا تتأثّر بعوامل اجتماعية و بالتقدّم في مجال الاتصالات في جميع أنحاء العالم.

و من جهة رابعة، فإنّ ارتشاف القهوة يفترض مساراً كاملاً لمراحل متلاحقة من التنمية الاجتماعية و الاقتصادية .فالقهوة،شأنها شأن الكثير من مفردات التغذية كالشاي،و الموز،و السكر الأبيض لم يبدأ شيوعها و انتشارها إلاّ في أواخر القرن التاسع عشر.و رغم أنّ القهوة قد بدأت في الشرق الأوسط، فإنّ استهلاكها بكمّيات ضخمة قد بدأ مع عمليّات التوسّع الغربي قبل أكثر من قرن و نصف القرن.و يأتي معظم ما نتعاطاه اليوم من القهوة من مناطق استعمرها الأروبيون، و هي بالتالي ليست بهذا المعنى جزءًا "طبيعيًّا"

من الغذاء الغربي. كما أنّ الإرث الاستعماري قد ترك بمجمله آثارا هائلة على تطوّر تجارة القهوة الدولية. و في هذه النقطة يمكن أن نذكر حالتنا الخاصة كجزائريين حيث أنّ تقسيم وجباتنا الغذائية، و خاصة الوجبة التي نتناول فيها القهوة ما هي إلّا وجبة ورثناها عن المستعمر.

و خامساً، لا يفوتنا أن نذكر في هذا المجال أن القهوة هي من المنتجات التي تقف في مقدّمة المساجلات الراهنة حول العولمة،و التجارة الدولية،و حقوق الإنسان،و التوازن البيئي...الخ.فمع انتشار القهوة و تزايد شعبيتها، أصبح هذا المنتوج مسيّساً، كما أنّ القرارات التي يتّخذها المستهلكون حول نوع القهوة التي يشربونها و مصادر ابتياعها قد أصبحت تمثّل خيارات لأسلوب الحياة.فقد يفضّل البعض تناول القهوة العضوية،أو القهوة الخالية من الكافيين، و ربّما يقاطع من يتعاطون القهوة منتجاتها من بلدان محدّدة ذات سجل سيّئ في مجال حقوق الإنسان أو العناية بالبيئة(مثلما يفعل بعضنا في المجتمعات الإسلامية مع المنتجات الدانماركية أو الإسرائيلية).و يهتم علماء الاجتماع أيضاً بدراسة أثر العولمة في تزايد حدّة الوعي لدى الناس تجاه قضايا، و مشكلات تبرز في أقاصي الأرض ، و لكنها تدفعهم إلى اتخاذ مواقف معيّنة انطلاقاً من وعيهم لآثار هذه التطوّرات على حياتهم.

يتيح لنا الخيال السوسيولوجي أن ندرك أنّ كثيراً من الأحداث التي تؤثّر في ظاهرها على الفرد فحسب إنّما تعكس قضايا أوسع و أهم.فقد يبدو الطلاق على سبيل المثالمسألة صعبة جدا أو كما يقول ميلز مشكلة شخصية لمن يمرّ بها.غير أنّ الطلاق في الوقت نفسه قضيّة عامة في المجتمع مثلما هو الحال في مجتمعاتنا العربية الإسلامية، و خاصة في المدن، و لدى الأزواج الشباب.و البطالة كمثال ثاني قد تكون كارثة شخصية لشخص فقد عمله(خاصة إذا كانت لديه مسؤوليات)و لم يستطع ان يجد بديلا في عمل آخر.غير أنّ الأمر يتجاوز حدود الخسارة الشخصية عندما تطال البطالة ملايين الناس في المجتمع فتغدو قضية عامة تعبّر عن اتجاهات اجتماعية واسعة

و يجدر بكل واحد منا أن يطبّق هذه النظرة على حياته الشخصية. وليس من الضروري أن تقتصر هذه الرؤية على الأحداث و القضايا الإشكالية. تأمّل على سبيل المثال، في الأسباب التي تدعوك إلى تصفّح هذا التقرير أو تدفعك إلى دراسة علم الاجتماع.فقد تكون دارساً لعلم الاجتماع مرغما ، لأنّك تريد دراسة علم النفس في جامعة تيارت(لأنّك لا تستطيع ترك مدينتك و مسؤولياتك، أو لا تستطيعي ذلك لاعتبارات ثقافية مثل رفض العائلة تنقّلكي إلى خارج الولاية)، و لا يتأتّى لك ذلك إلاّ إذا درست LMD علوم اجتماعية، و لعلّك تكون راغباً بالفعل في معرفة المزيد عن هذا الموضوع. و مهما كانت الدوافع،فإنّك تشارك الآخرين في مسعاهم في دراسة علم الاجتماع، و من دون أن تدرك ذلك بالضرورة.إنّ قرارك الشخصي هذا ينمّ عن موقعك في المجتمع الواسع حولك.

إنّ الخيال السوسيولجي هو الذي يسمح لك بإدراك هذه الحقائق السوسيولوجية من حولك،و هو الذي يجعلك تحوّل أي موضوع كان ، أو أي قضيّة ،بل أيّ شيئ تراه إلى موضوع من مواضيع علم الاجتماع.فكما يقول علماء الاجتماع "كلّ شيئ قابل للدراسة في علم الاجتماع"« tout est sociologisable » بشرط أن يعتمد الباحث على خياله السوسيولوجي فيحوّل الظواهر النفسية أو الشخصية (كما رأينا منذ قليل) إلى ظواهر تخص علم الاجتماع.

الدرس الثالث: جذور علم الاجتماع

تتأثّر البناءات الفكرية معرفة و منهجاً في العلوم الاجتماعية بالظروف الموضوعية الحاضرة و التاريخية، و بما تراكم تاريخيًا من بناءات فكرية و علمية.و يفرض الواقع الاجتماعي قضاياه، و يؤدّي تطوّره إلى ظهور قضايا جديدة تستدعي تطوّرا فكريّاً و معرفيًّا يتفق مع هذه المستجدّات الموضوعية.و تختلف استجابة المفكّرين للواقع و قضاياه و تحوّلاته، كلّ حسب موقعه في البناء الاجتماعي، و ما يحمل من معتقدات،و بهذا تظهر التيارات الفكرية المتباينة،و التي يؤدّي الحوار بين أصحابها إلى التجديد الفكري و تطوير المعرفة.

تتظافر الظروف الموضوعية و الفكرية بترابطها في تشكيل البناءات الفكرية و تطوّرها،في علاقة غير حتمية،إذ يبقى احتمال تجاوز الفكر الإبداعي الأطر الموضوعية و الفكريةالحاضرة و التاريخية، و رغم هذا الاستثناء يمكن القول بأن معظم المستجدّات الفكرية و توجّهاتها ترتبط إلى حد كبير بالواقع الموضوعي، و ما تم من تراكم فكري و معرفي، و منهجي.

لقد كان للتحوّلات الموضوعية و الفكريةحتى القرن التاسع عشر، بصماتها في نشأة و تطوّر العلوم الاجتماعية عامة، و علم الاجتماع خاصة. و لهذا فإنّ تناول الظروف الموضوعية و الفكرية السابقة لظهور علم الاجتماع تساعد في فهم أسباب و ظروف نشأته، و ما فيه من تطورات معرفية و منهجية.

شهدت أوروبا، التي ظهر فيها علم الاجتماع-بعد ظهوره بداية عربية-تحولات اجتماعية،سياسية، اقتصادية جذرية أدّت إلى واقع اجتماعي جديد يحمل قضايا و مشكلات جديدة.فجاء القرن التاسع عشر، بعد زوال الدولة الإمبراطورية و الإقطاعيات، ليشهد تشكّل الدولة القومية،و المجتمع الرأسمالي بكل ما يحمله هذا النظام من تباين طبقي، و مشكلات الفقر، و عمليات التنافس و الصراع على الموارد و الأسواق.لقد تشكل هذا الواقع الجديد نتيجة أحداث كبرى سابقة، من أهمّها:

1-الثورات و الصراعات السياسية:

كان للثورة الفرنسية، ثم الحروب القومية،و الحروب و الصراعات الداخلية الإثنية و الطائفية أثرها في تشكيل المجتمعات الأروبية.

حملت الثورة الفرنسية مبادئ المساواة و الحريّة و الإخاء ،فقلبت بهذا أسس و قواعد التمييز التي كانت سائدة في البناء الاجتماعي، و جعلت سلطة الحكم في الإرادة الشعبية،مهيّئةً الظروف لاستبدال النظم الملكية المطلقة ،و المستبدّة، بنظم دستورية ديموقراطية.و لكن النظام السياسي الجديد لم يتحقّق إلّا بعد زمن، و بعد جهود و صراعات، ممّا أدّى إلى فترة من اللا نظام، أدّى هذا الواقع المتحوّل و غير المستقر إلى ظهور مواقف متباينة نحو النظام و تغييره، فأصبح النظام من القضايا الهامة، ليس فقط من منطلق إعادة النظام، إنّما أيضاً نوع النظام الذي يجب أن يتحقّق.

واجهت معظم المجتمعات الأوروبية، في محاولة بناء الدولة القومية صراعات خارجية و داخلية، و قد تمثّلت الصراعات الداخلية في محاولة الأغلبية الإثنية و الطائفية في كل دولة القضاء على الإثنيات و الطوائف الأخرى.حاولت الأغلبية الكاثوليكية القضاء على الأقلية البروتستانتية في فرنسا،و حاول البروتستنتي في انجلترا القضاء على الكاثوليكية و مؤسّساتها،و شهدت ألمانيا مثل هذه الصراعات.و قد أدّى بناء الدولة القومية في إيطاليا إلى حروب بين الدويلات التي كانت ترتكز على مدينة روما و ما يتبعها من منطقة.فنتج عن هذه الحروب حالة من اللا نظام و عدم الاستقرار، و هجرات جماعية.و إذا كانت هذه الصراعات الداخلية قد أدّت إلى خلخلة النظام الداخلي.فقد أدت الحروب بين الدول القومية إلى توحّد الأغلبية الحاكمة في كل دولة. و تضمّن نشوء الدولة القومية الاستقلال عن السلطة الدينية المركزية (التي كانت تمثّلها روما)،ممّا حرّر مع الوقت السلطات الزمنية من تبعيتها للسلطة الدينية، و مع هذا تطوّر استبدال الشرعية الدينية للسلطة بأسس دستورية وضعية،و في الوقت نفسه تحرّر الفكر من السلطة الدينية.و قد كان للثورة الفرنسية الدور الرائد في هذا المجال، حيث أنّ ثورة البرجوازية على الأرستقراطية أدى إلى تحرّر

المجتمع الفرنسي و المجتمعات الأوروبية بعد ذلك من هيمنة الطبقة التي رسّخت الفكر الكنسي الذي ثبّت الفوارق و الامتيازات الكبيرة جدا، و الغير عادلة لصالحها بدرجة القداسة، فكانت الثورة البرجوازية كردّة فعل على هذا الوضع الغير مستقر.

2-الثورة الصناعية:

بظهور الصناعة الحديثة،و ما رافقها من تطورات تكنلوجية،و اقتصاد تجاري و مالي، بدأ التحوّل من أهمّية ملكية الأرض و الزراعة إلى أهمّية الآلة و الصناعة.و مع هذا التحوّل من الإقطاع إلى الرأسمالية الصناعية و التجارية .رافق هذا التحوّل بروز طبقة رأسمالية، تسيطر على وسائل الإنتاج و الثورة،تملك القوة و المكانة، استغلّت هذه الطبقة الجديدة وضعها في تحقيق الربح و الثروات على حساب الطبقة العاملة.

و في الوقت نفسه أدّى وجود العمال في المصانع إلى تجمّعهم في أماكن محدّدة، سمح بتفاعلهم و اتصالهم المباشر، ممّا أدّى إلى تطور وعيهم بتماثل أوضاعهم، ثم بتماثل مصالحهم، الأمر الذي أدّى إلى قيام تنظيمات عمالية، استطاعت من خلال الوعي و التنظيم أن تصبح قوة فاعلة في تقرير الواقع.

سمح تقسيم العمل، و تباين المهارات و المعرفة اللازمة،و الانتشار النسبي للتعليم و تعميمه، بظهور طبقة جديدة وسطى، و فرص حراك إجتماعي.توزّع المفكرون في هذه الطبقة بين محافظين يدافعون عن النظام، و آخرين ينتقدون النظام القائم و يدعون إلى تغييره.

زاد تطور الوسائل التقنية في حجم الإنتاج ، و زاد بهذا تنافس الطبقة البرجوازية الرأسمالية و الدول على الموارد و الأسواق،مما أدى إضافة إلى الصراعات، إلى استعمار بلدان إفريقية و آسيوية و أخرى في الأمريكتين (و هذه الحركة الناجمة عن واقع اقتصادي و فكري تسمّى الأمبريالية).و قد أفرز هذا تناقضًا جديداً غير التناقض الطبقي ممثّلاً في علاقة الدول الصناعية بالبلدان المستعمرة، ففي الوقت الذي أدّى فيه استغلال العمال إلى تكديس الثروات في أيدي قلّة على مستوى الدولة، أدّى نهب الموارد، و تسخير العمالة في البلدان المستعمرة إلى تضخّم الهوّة بين هذه البلدان و الدول الصناعية.و قد عمل الاستعمار على إفقار هذه البلدان و منعها من التطوّر و التنمية.

اقترن التنافس الصناعي باستخدام العلم في تطوير وسائل الإنتاج و المنتج، و تنظيم العمليات الصناعية و التجارية و تطويرها، إضافة إلى تطوير المهارات الموازية لهذه التطوّرات.و قد أدّى هذا إلى زيادة أهميّة الآلة و ضعف مكانة العامل.و مع زيادة تقسيم العمل في نظام رأسمالي، شعر العامل بحالة من الإغتراب و الاستلاب خاصة و أنّ تقرير الأمور كالأجور و الأسعار قد خرجت عن الإرادة الإنسانية، تحرّكها و تقرّرها قوى خارجية كالعرض و الطلب.

غيّرت الآلة و الصناعة مفهوم الوقت، فأصبح أكثر دقّةً و إزاماً، كما أدّى هذا النمط الإنتاجي إلى تأسيس العلاقات الرسمية المرتبطة بالدور.

خلّفت الثورة الصناعية بناءًا اجتماعيًّا شمل مع الزمن طبقة ثريّة مالكة لمعظم الثروة، و طبقة عمّالية تعيش حياة الكفاف، ثم ظهور و تطوّر طبقة وسطى مارست حراكًا اجتماعيًّا، تتوقّع استمراره، و بالتالي ترى في النظام القائم فرصةً للتحسّن.

لقد أدّى الازدهار الاقتصادي إلى تكدّس الثروة في أيدي قلّة ممّا زاد الهوّة بين هذه الطبقة و غيرها، و ما أدّى إلى شعور الآخرين بالحرمان و عدم العدالة، الأمر الذي أدّى إلى صراعات اجتماعية و سياسية (لا تزال بعض أشكالها إلى اليوم).و في الوقت نفسه إلى ظهور فكر ثوري مقابل فكر محافظ.

3-الثورة الحضرية:

رافق تطور الصناعة ،و التجارة، و الاقتصاد المالي نمو المدن، و هجرة متزايدة من الريف إلى المراكز الحضرية، و لقد أدّى هذا التحوّل، و الطبيعة التجارية للاقتصاد إلى زيادة اعتماد الريف على المدينة، و زيادة الهوّة بين الجانبين لصالح المدينة.

أدّت هجرات الريفيين إلى المدن إلى ظهور مناطق فقر في المدن، مناطق سكنية مزرية، خالية من الخدمات، مزدحمة، و في الوقت نفسه و على النقيض من هذه مناطق أحياء للأغنياء. لم يكن المهاجر الريفي يملك المعرفة و المهارات اللازمة للعمل في مجتمع صناعي.فاضطرّ إلى قبول أعمال هامشية، و بأجور متدنّية، ممّا خلق ضرورة عمل المرأة و الأطفال و استغلالهم.شكّلت أحياء الفقراء تجمّعات تعيش على الكفاف، و في ظروف صعبة، فأصبح لهذه الجماعات أسلوب حياتها و ثقافتها.و لقد نتج عن هذه الظروف انتشار الأوبئة، والمشكلات الاجتماعية، و البيئيةن كما زادت من احتمال وقوع الانحراف الاجتماعي ،الجريمة، و العنف.

إضافة إلى هذه المعاناة الاجتماعية و الاقتصادية، واجه الفقراء تمييزًا سياسيًا و تشريعيًّا و قضائيًّا، عملت الطبقة المهيمنة على تعزيزه و إعادة إنتاجه للحفاظ على استمرار امتيازاتهان و ضبط أفراد الطبقة العمالية الفقيرة.

هذه بعض أهم الظروف الموضوعية التي سادت المجتمعات الأروبية قبل و عند ظهور علم الاجتماع.لقد تضمّنت هذه الظروف قضايا كان لا بد على علماء الاجتماع و المفكرين الاستجابة لها، منها قضيّة النظام، و التناقض الطبقي، و الفقر،و معدّلات الجريمة، و الحرمان و الاستغلال، فكان لا بد أن يهتم علماء الاجتماع بمحاولات إعادة بناء المجتمع .فما كانت دراسة دركهايم للإنتحار (و هي أوّل دراسة ميدانية في علم الاجتماع، و بالتالي يمكن اعتبارها شهادة ميلاد السوسيولوجية الحديثة) إلاّ استجابة لارتفاع معدّلات الانتحار في الوسط الحضري نتيجة الظروف المذكورة آنفًا، و حالة الاغتراب التي وقع فيها الوافدون الجدد على المدينة.و لقد أفرزت هذه الظروف اتجاهات فكرية، أبرزها الفكر المحافظ المبرّر و المدافع عن الواقع، مقابل فكر إصلاحي و آخر ثوري تضمّن ضرورة التغيير.

إلى جانب هذه الظروف الموضوعية، استفاد رواد علم الاجتماع في بناء المعرفة و المنهج مما كان تراكم من فكر اجتماعي و بناءات فكرية، تعتبر المصدر الثاني الذي كان له آثاره في تشكيل علم الاجتماع نظريّاً و منهجيًّا.

الدرس الرابع: المصادر الفكرية لعلم الاجتماع

كان لعصر التنوير أهمّية في توجيه الفكر الغربي، فقد برزت فيه مفاهيم و افتراضات العقلانية، و التركيز على الفردية.و أصبح الواقع أساس المعرفة، و أنّ الإنسان هو منتج هذه المعرفة، فأزالت بهذا سلطة الموروث و الدين، و تمّ استبدال القاعدة الدينية للفكر بالعلمانية و العلم ،حتى أصبح العلم قاعدة للأخلاق و التنظيمات الاجتماعية.

لقد حرّر هذا التوجّه الفكر الفردي في الموروث الجماعي، و سلطة رموز المعارف من القدماء، و مؤسّسة الكنيسة. و بهذا اعتبر علماء الاجتماع الأوائل الواقع الاجتماعي أساساً لبناء المعرفة، و أنّ هذا يستدعي وجود مناهج تمكّن الباحث من الوصول إلى حقيقة هذا الواقع الاجتماعي.

لم يخلو فكر التنوير من النقد، و بهذا ظهر في الفكر الاجتماعي تيارات فكرية متباينة، و شكّلت في مجملها مصادر معرفية و منهجية لعلم الاجتماع. و كان أهم هذه المصادر ما جاء في محاولات تفسير النظام الاجتماعي ، و قيام الدولة، و خاصة ما تمّ افتراضه حول الحالة الطبيعية و طبيعة الإنسان، إضافة إلى ما جاء في الدراسات الفلسفية و فلسفة التاريخ،و الدراسات الاقتصادية و التشريعية، وحتى ما تطوّر من معرفة في العلوم الطبيعية.

1 - فلاسفة العقد الاجتماعي:

من القضايا التي اهتمّ بها الفكر الاجتماعي منذ القدم محاولة تفسير قيام النظام الاجتماعي،ممثّلاً عادة في مجتمع الدولة، و ما تضمّنه من تنظيمات و نظم اجتماعية و اقتصادية.

وجد البعض أنّ الإجابة على مثل هذه التساؤلات لا بد أن تنطلق من بدايات الحياة، و خاصة الحالة الطبيعية، إلى جانب طبيعة الإنسان نفسه.و قد كان لما جاء في الديانات عن الجنّة، ثم الخطيئة الأولى و السقوط أثرها على افتراضات بعض المفكّرين حول طبيعة الإنسان ، و الحالة الطبيعية للاجتماع الإنساني. وفي المقابل اعتمد البعض الآخر على التاريخ، و خاصة بعد أن زوّدهم المؤرّخون، و الانثروبولوجيون بالمعلومات و البيانات التي يمكن اعتمادها كمصادر لبحوثهم.ثم أصبح ما تراكم من آراء وفكر مصدرًا ثالثًا في تناول المفكّرين للنظام الاجتماعي و الدولة.

برزت أهميّة الطبيعة الإنسانية و الحالة الطبيعية في تفسير النظام الاجتماعي بشكل واضح في القرنين السابع عشر و خاصة الثامن عشر، و قد أصبح من الهام في هذه الفترة تفسير قيام مجتمع الدولة و الأمّة، la société état et la société nation و التوجّه العلماني، ثم النظر إلى الحالة الطبيعية غالبا على أنّها حالة غير آمنة و غير مستقرّة،كان لا بد من تجاوزها و قيام المجتمع السياسي. ففي الوقت الذي شهدت الجماعات الإنسانية نموًّا اقتصاديًّا،و تحقيق فائض، أصبح من الهام حماية الملكية.

لجأ البعض في محاولات تفسير وجود نظام اجتماعي سياسي، إلى فكرة العقد الاجتماعي.و يعتبر توماس هوبس Thomas HOBBES من أكثر مفكّري العقد الاجتماعي شهرةً و تداولاً. و قد بنى نظريّته على افتراضات أهمّها:

1- إنّ الإنسان أناني بطبعه،يصاحب هذا:
2- سعيٌ دائمٌ لتملّك القوة و مصادرها، و هذا ما يؤدّي إلى:
3- عداءٌ دائم و صراع،حرب الجميع على الجميع، و في هذه الحالة
4- لا يمكن حدوث تطوّر اقتصادي أو تنظيمي أو معرفي أو فنّي ،لكن
5- الإنسان كائن عقلاني ،ممّا أدّى إلى ضرورة التنظيمن من خلال عقد اجتماعي يتجاوز به الإنسان حالة الفوضى و الصراع ببناء نظام اجتماعي سياسي تفوّض فيه السلطة حسب رأي هوبس إلى ملك.

و يتّفق افتراض العقلانية هذا مع ما جاء به سبينوزا SPINOZA بأنّ من الأفضل للإنسان أن يعيش بعقله و المنطق من أن يعيش بالرغبات. و لهذا ترتّب على العقل بناء المجتمع المدني.

اعتبر جون لوك John LOCKE الحالة الطبيعية مرحلة تاريخية سابقة للنظام السياسي، لكنّها شهدت في الوقت نفسه حياة و تنظيمات اجتماعيةن فكانت الأسرة،و جماعات القرابة، و الجماعات المحليّة، ولدت

من أجل التنظيم الإداري و السياسي، عقدًا اجتماعيًّا بإرادة شعبية، نتج عنها نظام سياسي يقوم على سلطة أساسها الشعبن و بهذا يرتبط استمرار الحكم بالإرادة الشعبية.

رأى جيامباتيستا فيكو Giambatista VICO من خلال دراسته المشهورة "العلم الجديد"، و من خلال دراساته التاريخية أنّ الدين قد لعب دورًا هامًا في قيام النظام الاجتماعي، كما أدّت الوحدة الدينية إلى قيام مجتمع الدولة.أمّا البارون دو مونتسكيوBaron DE MONTESQIEU فكان له رأي مخالف لرأي هوبس في الحالة الطبيعية،و ذلك في مؤلّفه الشهير "في روح القوانين" « De l'esprit des lois ». فقد رأى أنّها تمثّلت في إنسان يخاف الظروف الطبيعية، يحاول غريزيّاً البقاء، الأمر الذي أدّى إلى تجمّعه في حياة اجتماعية منظّمة.فحرّره هذا من خوف الطبيعة، و بهذا فحالة الصراع و الحرب ليست من طبيعة الإنسان، و إنّما جاءت نتيجة التجمّعات الإنسانية، و مصالحها المتضاربة ، و قد افترض كل تجمّع إنساني قيام تنظيم سياسي و تشريعات منظّمة.أمّا دافيد هيوم David HUME فقد تجاوز افتراضات الحالة الطبيعية، و فسّر النظام الاجتماعي بالحاجات الإنسانية،و أنّ الدولة جاءت نتيجة القوّة.أمّا جون جاك روسو Jean Jacques ROUSSEAU المفكّر السويسري صاحب كتاب "في العقد الاجتماعي" « Du contrat social »فقد عاد إلى افتراض حالة طبيعية يسودها العنف، و أنّ الخلاص في هذه الحالة يتمثّل في بناء مجتمع مدني.

لقد استفاد علم الاجتماع كثيرًا من هذا الفكر الاجتماعي، خاصة ما تعلّق بافتراض الطبيعة الموحّدة للإنسانية، و بالتالي اعتبار المجتمع الإنساني كوحدة تحليل ، بافتراض مسيرة تاريخية مشتركة.

2-الموسوعيون :

بإجماع علماء الاجتماع الأوائل و المعاصرين فإنّ العمل الذي قام به مجموعة من الفلاسفة في القرن الثامن عشر باشتغالهم بجمع المعارف الإنسانية في مؤلّفات خاصة أكثر من اشتغالهم بنقدها أو محاولة مناقشتها كان له الدور الحاسم في نشئة و تشكّل العلوم الإنسانية و الاجتماعية عامة ، و علم الاجتماع خاصة.فلا أحد من علماء الاجتماع اليوم ينكر الأعمال التي قام بها كل من ديدروDIDEROT، دالومبارD'ALEMBERTكوندورسيCONDORCET،ميرابو MIRABEAU أو حتى مونتسكيو في بعض الفترات، و الدور الذي لعبته في اختزال الوقت على الفلاسفة و المفكّرين ، الذي كانوا يضيّعونه في البحث عن المعارف و الأفكار في المؤلّفات المتفرّقة في جميع أنحاء أوروبا.و كان لكوندورسي شرف تأليف أوّل موسوعة ،وتبعه العديد من الفلاسفة و المفكّرين في فرنسا خاصة، ثم في جميع أنحاء أوروبا بعد ذلك. فلولا الموسوعيون لكانت البشرية ربّما في انتظار اختراع علم يدرس الاجتماع البشري إلى اليوم. فحتى أفكار فلاسفة العقد الاجتماعي، و معهم فلاسفة التنوير لم تكن لتكون بهذا التأثير على علم الاجتماع لولا الموسوعيين Les encyclopédistes.

3 -فلسفة التاريخ:

دائما مع التفكير حول الحالة الطبيعية للإنسان،فلقد أدّت فلسفة التاريخ إلى الاعتقاد بأنّ الإنسان قد عاش تاريخيًّا حياة اجتماعية تمثّلت في وجود الجماعات و التنظيمات الاجتماعية التي لم يكن وجودها نتيجة الصدف، بل نتيجة عمليّات تطوّر تاريخي أساسها الإنسان و أفعاله.أي أنّ القضيّة هنا تفكير حول تحوّل أفعال الإنسان من الأفعال الغريزية إلى الأفعال و السلوكات المنظّمة التي تحكمها الثقافة.

بدأ علم الاجتماع إذا بداية فلسفية، خاصة مع أعمال أوجست كونت،و بالأخص عمله المعنون"دروس في الفلسفة الوضعية"« cours de philosophie positive » حيث وضع الأسس الأولى لعلم الاجتماع.أمّا التطوّر الفلسفي الذي عرفه القرن التاسع عشر بالمقارنة مع عصر التنوير فلقد تمثّل فيما يلي:

1-بينما ركّز مفكّروا التنوير على الفرد، فقد كان رد الفعل،و خاصة في فرنسا التركيز على الجماعة و المجتمع.فالمجتمع أكثر من مجرّد مجموع أفراد، فهو ينبثق عن النشاطات الإنسانية، له وجود مستقل تحكمه قوانين تقرّر تشكّله و تطوّره التاريخي.

2-أصبح المجتمع وحدة التحليل الأساسية و ليس الفرد، ترتّب على هذا الاعتقاد بأنّ البناءات و النظم الاجتماعية تشكّل الفرد من خلال عمليّة التنشئة الاجتماعية بمؤسّساتها و مصادرها المختلفة.
3-لجوء البعض إلى عدم اعتبار الفرد الوحدة الأساس في النسيج الاجتماعي، و اعتماد (الدور،المكانة) و البناءات و النظم في تفسير الأمور، فالفرد يُنظر له كشاغل دور.
4-النظر إلى أجزاء المجتمع من وحدات البناء و النظم على أنّها في علاقة ترابط و تساند، و أنّ هذه العلاقات أساس النظام الاجتماعي، ممّا أدّى إلى نظرة محافظة،على أساس أنّ أي تغيّر يمكن أن يخل بحالة النظام و التوازن، ممّا يمكن أن ينعكس سلبًا على المصالح الفردية و الجماعية.
5- بهذا تمّ النظر لدى البعض ، إلى التغيّر كتهديد للنظام الاجتماعي، و ذلك على أساس أنّ الأدوار و البناءات و النظم قد تشكّلت لتلبية حاجات الأفراد و الجماعات، و بهذا فإنّ أي تغيّر يمكن أن يضر بالمصالح الفردية و الجماعية، و يؤدّي إلى حالة اللا نظام.
6- النظر إلى العناصر الاجتماعية و الثقافية كعوامل وظيفية للمجتمع و مكوّناته، ممّا أدّى إلى إغفال البعض للجوانب السلبية للعناصر و النظام القائم.
7-النظر إلى الوحدات الاجتماعية كالأسرة، و جماعات العمل، كوحدات ضرورية تتضمّن العلاقات الأوّلية الضرورية للنظام و الحياة في مجتمع حديث.
8-غلب على البعض التوجّه إلى النظر إلى عمليات التصنيع و التحضّر و البيروقراطية، كعمليات تهدد النظام، ممّا أدّى إلى الاهتمام بكيفية الاستجابة لها.
9-بينما افترض مفكّروا التنوير زيادة العقلانية و التقدّم،استجاب المحافظون بالتركيز على الجوانب اللاعقلانية كالطقوس و العبادات و المشاعر.
10-و مع هذا اعترف المحافظون بنظام يتغيّر تدريجا، و ظهور تباين تسلسلي في المكانات و المكافآت كنتيجة طبيعية لتقسيم العمل.

4- المصادر التشريعية و القانونية:

ساهمت كتابات مونتسكيو في تعزيز التوجّه الديموقراطي ، خاصة في فكرة الفصل بين السلطة التنفيذية، والتشريعية و القضائية المتضمّنة في كتابه الشهير "في روح القوانين". كما ساهمت المصادر التشريعية و القانونية في الفكر الاجتماعي في فكرة التناسق و الانسجام بين ثقافة المجتمع و التشريعات، و بأنّ التشريعات ما هي إلاّ عملية تنظيمية لأوجه الحياة المختلفة. و أنّ القوانين تتفرّع بزيادة تقسيم العمل و المستجدّات في الحياة الاجتماعية كظهور قوانين المرور بعد ظهور السيارات.

ارتبط الفكر التشريعي بتنظيم المجتمع و تقنين العلاقات،فجاء في بعضه ليعزّز واقعًا قائمًا لصالح فئات، كما كان الحال في كتابات وليام بلاكستون William BLACKSTONE الذي انحاز لمصلحة البرجوازية الصناعية، و خاصة بما يرتبط بحماية الملكية، أو ليكون مصدراً للتغيير بقصد تحقيق العدالة و المساواة. و بهذا ارتبط الفكر التشريعي بالبناء الاجتماعي من حيث الحقوق و الواجباتن كما ارتبط بتطوّر و تطوير عقلنة العلاقات و النظام الاجتماعي.

فوق هذا جاء الفكر التشريعي في معظمه ليستبدل المصادر الدينية للقوانين بأسس و مصادر عقلانية علمانية، و بهذا يعتبر من مصادر التحرّر من هيمنة المؤسّسات الدينية.

5- الفكر الاقتصادي:

ظل الفكر الاقتصادي في العصور الوسطى مرتبطًا إلى حد كبير بالخطاب الديني و الأخلاقي،بدأ منذ القرن السابع عشر بالظهور كعلم مستقل، و بدأ بعدها بالتطوّر و ظهور مدارس فكرية متباينة، ساد بعضها في مراحل تاريخية.

تضمّن على سبيل الذكر لا الحصر الفكر الاقتصادي السياسي الكلاسيكي افتراضات حول طبيعة الإنسان، منها أنّ الإنسان كائن عقلاني، و قد عزّز هذا ما جاء في عصر التنوير حول عقلانية الإنسان. و قد ظلّ هذا الاعتقاد شائعًا حتى تم القول بالجانب اللاعقلاني، و خاصة ما جاء في كتابات فرويد عن جانب اللاوعي

و المشاعر و العواطف، و قد ظهر مثل هذا التوجّه بشكل واضح لدى باريتو V.PARETO ، و في تجنّب علماء الاجتماع المعاصرين افتراض عقلانية مطلقة.

كان لكتاب آدم سميث Adam SMITH الذي ظهر عام 1776م تحت عنوان"ثروة الأمم" la « Richesse des nations « wealth of nations » أثره البالغ في الفكر الاقتصادي و السياسي و الاجتماعي . ركّز سميث في نظريته الاقتصادية على أهميّة العمل و العمالة، واعتبرها من أهم مصادر الثروة، وبناء عليه اهتم بتقسيم العمل لما له من أهمّية في عملية الإنتاج، و توزيع فرص الحياة و التدرّج في البناء الاجتماعي.

ربط سميث المكانة الاجتماعية بفرص الحياة، و ما يمكن أن يحقّق الإنسان من ثروة ،و بفرص الإنسان في سوق العمل. و قد أدّى إيمانه بالنظام الطبيعي إلى نقده للمدرسة التجارية (التي كانت سيّدة الفكر الاقتصادي)مؤكّدا أنّ سعادة الإنسان و ثروة الأمّة يمكن أن تحقق بالحريّة الاقتصادية ، وعبارته مشهورة جدّا في هذه النقطة:"دعه يعمل، دعه يسير"، و على هذا حدّد دور الدولة، و مجالات تدخّلها في:

1-حماية المواطنين من التهديدات الخارجية

2- تطبيق القوانين و تحقيق العدالة

3- إقامة الاعمال العامة و صيانتها، و تزويد المواطن بالخدمات، كالخدمات الصحيّة و التعليمية.

إلى جانب سميث، طوّر ريكاردو RICARDO افتراض أجور الكفاف، حيث يكفي منح العامل أجراً يكفي لاستمرار بقائه.لقد مهّد ريكاردو لنظرية فائض القيمة بربطه القيمة بالعمل في عملية الإنتاج، و التي استخدمها ماركس K.MARX في تفسيره لعمليّة استغلال العمّال.